

## الانتخاب والدعوة عند الهاادوية الزيدية

يَقُولُ زِيدُ بْنُ عَلَى الْوَزِير<sup>١</sup>

### Hâdevî Zeydilikte Seçim ve Davet

#### ÖZET

Bu makale Hâdî İlelhak döneminde Yemen Zeydî Devleti'nde imametin seçim ve davetle gerçekleştiğini ve bunun bir esas olarak tesis edildiği tezini işlemektedir. Makalede 284-298/897-911 tarihleri arasında hilafet görevini yürüten Hâdî'nin seçimle işbaşına geldiği ve "Emr-u bi'l-Mâ'rûf ve Nehy-u anî'l-Münker"i yerine getirmek ve Kitab'ın hükmüyle hükmetmek üzere imam tayin edildiği vurgulanmaktadır. Bu çerçevede seçim ilkesinin yanı sıra imamet için kendisine biata davetin mi yoksa mütegallibin imametinin mi geçerli olduğu üzerinde durulmaktadır. Bu çerçevede klasik dönemlerdeki görüşlere ilaveten son devir âlimlerinden eş-Şevkâni'nin mütegallibenin imametini caiz gören ve namaz kılıp küfürlerini izhar etmedikçe zâlim yöneticilere karşı ayaklanmanın caiz olmadığı görüşü üzerinde durularak eleştiri konusu yapılmaktadır.

**Anahtar Kavramlar:** Mezhep, Şia, Zeydiyye, el-Hâdî, seçim, imamet, davet.

<sup>1</sup> رئيس تحرير مجلة المسار، رئيس مركز التراث والبحوث اليمني.

شكل مؤسس الدولة "الهادوية الزيدية" الإمام الهادي إلى الحق "يجي بن الحسين" معلماً بارزاً في مسيرة الزيدية، حتى ظن البعض من العلماء الكبار أن الهادي قد ابتعد عن "الزيدية" ابتعاداً كبيراً، بل يمضي بعيداً فيقول: إن مذهب "زيد بن علي" قد انقرض (إلا القليل من استمر عليه) وخلفه (مذهب الهادي في اليمن والناصر في الجيل والدليلم)، وقال إن مذهب الإمام "القاسم بن إبراهيم الرسي" -جد الهادي- قد (كان توسطاً فيما بين ولده [حفيده] الهادي وما بين زيد بن علي) و(كان الهادي في الأصول على مذهب أبي القاسم البليخي المعتزلي؛ لأنه أخذه عليه في علم الكلام وغيره)<sup>(1)</sup>.

وليس الأمر بهذه الحدية بأية حال، ولم يضع المؤرخ الكبير أمام نظره طبيعة التطور والمستجدات، وأن ما رأه توسطاً عند "القاسم" كان مرحلة من مراحل التطور والمستجدات، وليس من شك أن "القاسم" قد أضاف إلى الزيدية سمات تميزة، وكذلك أضاف الهادي وتلك الإضافات قد أملتها التطورات والمستجدات الكثيرة، وليس من شك أيضاً أن تلمذة "الهادي" على "البليخي" ليس إلا تأكيداً على زيديته، وليس دليلاً على ابتعاده عن مذهب "زيد"، ذلك أن أفكاراً مشتركة في "علم الكلام" قد جمعت بين "واصل"-مؤسس "المعتزلة" وبين "زيد" مؤسس "الزيدية". وإذا كانت "البلخية" و "الهادوية" تملكان سمات خاصة بهما، فهما لم يخرجَا من الأصول الجامحة<sup>(2)</sup>. ثم إن "مذهب زيد" لم يتفرض فلا يزال مؤلفه "المجموع الكبير" مرجعاً أساسياً عند الهادوية ومتبعاً ومحوذَا به. علينا أن نتذكر أن الزيدية توجب الاجتهاد، وتحرم التقليد، وأن هذه الاجتهدات المتراكمة قد أثرت المذهب وأحصبه، فلا يمكن القول والحالة بهذا الشكل إلا أن "الهادوية" هي امتداد طبيعي "للزيدية" بالرغم من ظهور المستجدات التي تتطلب اجتهدات جديدة، أو حتى مخالفة.

\*

على أن الشيء الذي خالف فيها "القاسم" و "الهادي" "زيداً" مخالفة واضحة هو موقفهما من "النص" في الإمام علي، ومن حصر الإمامة في "الحسن" و "الحسين" فيما سيسمي "البطنين"، وكان

(1) يحيى بن الحسين بن القاسم، المستطاب، مخطوط ج 1، ص 31.

(2) هي التوحيد والعدل والوعد والوعيد، والمثلة بين المثلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (محمد زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية - تاريخ المذاهب الفقهية، لندن- قيرص: دار الحديث 1987م بدون رقم الطبعة، ج 1، ص 126). وقد وضعت الهادوية الإمامة ركناً خامساً لها.(الهادي بن إبراهيم الوزير، تلقيح الألباب ورقة: 155 مخطوط).

تبنيهما لهذا الموقف أو المعتقد السياسي هو ماتطلبه مرحلة التأسيس السياسي لقيام دولة زيدية، فكلاهما عالمان مجتهدان سعياً إلى قيام دولة زيدية في مجتمع تسوده العصبيات القبلية، وقد فشل الأول ونجح الثاني، ولعلهما - وهذا رأي مبني على الاستنتاج القوي - أدركا أنهما يسبحان في بحر من العصبيات القبلية التي لابد من دعمها لكل تحرك سياسي آنذاك، ولأن لاعصبية هما، بعد أن استحوذ الأمويون والعباسيون على عصبية "مضر" بما فيها "قريش" فلا بد من اصطدام عصبية دينية هي حق أهل البيت في الخلافة، فكان النص والبطان هما العصبية التي تبناها الأشياع والأنصار. وإن إذ فإن مواجهة "الهادي" في "اليمن" عصبيات قبلية شديدة التضامن والتعاضد قد تكون وراء مقاومته لها بعصبية دينية، فتبني نظرية "الحصر العلوى" - على حلف ما ذهب إليه الإمام "زيد".

ومهما كان الأمر فهما بالنص والبطان قد خالفا رأي الإمام "زيد بن علي" في خلافة الراشدين، فهو لم يقل بالنص في "علي"، ولا في "البطان"، وإنما كان يرى الأولوية لـ "علي"، لا النص، وأنه قد أجاز بيعة الراشدين فهو قد أجاز الخلافة في أي فرع من فروع "قريش"<sup>(1)</sup> أي أنه لم يقل من ثم بمحض الخلافة في البطانين.

شكلت مخالفة الإمامين "القاسم" و "الهادي" للإمام "زيد بن علي" منعططاً حقيقةً في الفقه السياسي ولا شك، ولكن مادون هذا الاختلاف من اجتهادات فقهية بين الإمام "زيد بن علي" والإمامين "القاسم" و "الهادي" فهو نتيجة الإيمان بوجوب الاجتهد الذي تقول به بقية الفروع الزيدية والمادوية كلها، والذي يسمح - مهما تباعدت بينها اجتهادات - بيقائهما في إطار واحد ضمن أصول واحدة.

\*

يمكن القول الآن إن "الهادي" قد اتفق مع المذاهب الأخرى في "الخلافة القرشية" وخالفها في فرع "قريش"، كما خالف زيداً أيضاً في حصرها في أولاد أمير المؤمنين "علي"، لكنه لم يقل بالوراثة داخل هذا الحصر، ووضع شروطاً رائعة لمواصفات من يستحق الخلافة من ذرية "الحسن" و "الحسين"<sup>(2)</sup>. ولم يقر التغلب ولا الاغتصاب السياسي، وجعل من الخروج على الظلمة قاعدة

(1) بل إن أذهب إلى أن زيداً لم يحصرها في قريش بل في الكفاءة المسلمة مع ترجيحه الأولوية لأهل البيت. انظر ما كتبه عن المبارودية ليست زيدية في المسار في العدد 32 وفي بثابع الزيدية في العدد 33.

(2) انظرها في أحد بن يحيى المرتضى، البحر الزخار الجامع للذهب علماء الأنصار، تحقيق القاضي عبد الله عبد الكريم الجرافي، صنعاء: دار الحكمة اليمنية 1409هـ/1988م، ج 5، ص 379-387. وانظر عبدالله بن مفتاح، المترعرع المختار

أساسية في مذهبه تبعاً لوقف الإمام "زيد" وإن ذُضمن هذا الحصر تميز برفض الوراثة في فرع واحد من البطنين، وجعلها في الأكفاء منهم حسب تلك الشروط والمواصفات الممتازة التي وضعها الناس. وضمن هذه الشروط والمواصفات سنجحصر البحث في شرطين من شروط استحقاق الإمام المأدوى هما: الانتخاب والدعوة، وقد اخترنا الموضوعتين لوجود تماس بينهما، أضر الآخر - بسبب غموضه - بالأول على نحو ما سنفصله.

جاء المأدي إلى "اليمن" عام 284هـ/897م وأسس فيها دولة فنية، وفكراً غوذجياً أيضاً ومن ثم قامت دولته على أساسين: فكري وسياسي، ويمكن القول إن الأساس الفكري - وهو ما يعبر عنه بالذهب - كان أكثر صموداً من الأساس السياسي وأكثر فعالية منه، وكان هو الذي ينقد الدولة - وليس العكس - من الأنفاس ويحميها من الزوال.

وعندما توفي يوم الأحد 20 من ذي الحجة 298هـ/<sup>(1)</sup> 18 أغسطس 911م في "صعدة" كان قد ترك وراءه قاعدة صغيرة ترسخت في ثراه مبادئه بفعل حوالي(77) كتاباً وكتيباً ورسالة<sup>(2)</sup> ألقها وعالج فيها قضايا مجتمعه في كافة الحقوق الدينية والسياسية والمالية والاجتماعية، وقدر لتعاليمه هذه أن تصيغ مجتمعاً جديداً وفق أفكار محددة أعاد تشكيل أعلى شمال اليمن أولاً، ثم شمال اليمن الريدي من "صعدة" إلى "سعار" ثانياً صياغة هادوية بحثة، بل تجاوزت ذلك كله حتى وصلت إلى "الجبل" و"الدليم" ليكون لها عبر "مدرسة القاسم بن إبراهيم (ت 246هـ/860م)" وجود ملحوظ. وقد شكلت تلك القاعدة الصغيرة في "صعدة" اليبيوع الذي سقى المناطق البعيدة، ورغم المحجمات المعاكسة والقوية أحياناً فإن ذلك اليبيوع لم يمحف أبداً.

لنتحدث هنا عن فكر "المأدي" السياسي، وإنما ستتناول نظرية الانتخاب والدعوة عنده من خلال التطبيق، لا من خلال النظرية وحدها، وكانت وفاة "المأدي" امتحاناً عملياً لقضية الانتخاب بالذات، ومقاييساً دقيقاً لمدى استيعاب الأمة الصبدية بوجه خاص لها، وهو قد توفي في فترة حرجة للغاية غلظ فيها أمر "علي بن الفضل" - القائد الباطني الشهير - (ت 15 ربيع الآخر 303هـ/28

من الغيث المدار المعرف بـ(شرح الأزهار)، تنفيذ مكتبة التراث الإسلامي، صعدة، طبع على نفقة وزارة العدل بالجمهورية اليمنية، الطبعة الأولى: 1424هـ/2003م، ج: 10، ص: 414 وما بعدها.

(1) علي بن محمد بن عبد الله العلوى، سيرة المأدي إلى الحق، تحقيق، سهيل زكار، بيروت: الطبعة الأولى، 1972م، ص 397. غاية الأمانى 1: 201. أئمة اليمن 1:

(2) عبد الله محمد الجبشي: حكام اليمن المؤلفون المجتهدون، بيروت: دار القرآن الكريم، الطبعة الأولى 1399هـ/1979م.

أكتوبر 915م) واشتد ساعده، وتضاعل في الوقت نفسه نفوذ دولة "المادي" حتى انحصرت في أعلى الشمال؛ فأصاب "أهل صعدة" ونواحيها لوفاته في تلك الظروف الوحش الشديد (لما دهم من الخطب العظيم)<sup>(1)</sup> وقصدوا "المرتضى" -ابن الخليفة الراحل-[ت محرم 310هـ/مايو 922م] لبياعته إماماً، كي يرد عنهم هذه العاصفة المغيرة، ويقيم فيهم العدل، وكان قد عرف عنه حلال فترة أبيه ومشاركته إياه بالسيف والقلم كثيراً من المزايا الفذة كالعلم الوافر، والشجاعة النادرة، والثبات على المبدأ، أي أنه اشتغل على كل شروط المادوية في الإمام، ولكن "المرتضى" رفض قبول البيعة، واستمرت محاولات إقناعه بقبولها عشرة أيام متالية، وهو يرفض تحمل مسؤولية الخلافة. وفي آخر المطاف جاءه الناس فأجهشوا بالبكاء بين يديه، فلما سكت أصواتهم قال لهم: (جزاكم الله من أهل محبة ولدية خيراً)<sup>(2)</sup> ثم أتني على "المادي" عليه السلام جميل الثناء، وبعد ذلك (تكلم كل واحد ببلغ رأيه وعلمه) و"المرتضى" صامت؛ (فلما هدأت الأصوات قال "المرتضى" عليه السلام: "لسنا رحّكم الله بأبناء دنيا نتكلّب عليها، ولا بأهل باطل فنطلب الإمارة والسلطان والأمر والنهي من غير استحقاق، وعلى غير وجهة رشد وسداد، واستقامة وصلاح")<sup>(3)</sup>.

ثم ذكر كيف عامل الناس "المادي" بعد استدعائهم إياه إلى بلادهم، ويعتبرهم له، وقال: (ألم ينقض أكثركم تلك العهود المؤكدة، والمواثيق الغليظة.. وكان عليه السلام يقاسي منكم الأمرين وتصيبه منكم الخن المتوترة وتعاملونه بأقبح العاملة)<sup>(4)</sup>.

ولكن العلماء والوجهاء والناس أصرروا عليه بالرغم مما يكتّهم به، وإزاء هذا الإصرار لم ير بدأ من القبول، خاصة وأن "علي بن الفضل" على وشك اقتحام "صنعاء" بقوات كثيفة، وأن ظله سوف يقترب من "صعدة" نفسها إذا احتل "صنعاء"؛ فتفقّل المسؤولية لهذا السبب كما صرّح في خطاب آخر كما سيأتي.

(1) يحيى بن الحسين الماروبي، الإلقاء في تاريخ الأئمة السادة، تحقيق محمد يحيى سالم عزان، صنعاء: دار المحكمة اليمانية، الطبعة الأولى 1417هـ/1996م، ص 170. محمد بن علي الزحيف: مآثر الأبرار، 2، ص 636.

(2) محمد بن علي الزحيف: مآثر الأبرار في تفصيل بمحملات جواهر الأخبار تحقيق عبد السلام الوجيه وخالد قاسم محمد المتوكّل، عمان" مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، الطبعة الأولى 1423هـ/2002م، ج 2، ص 636.

(3) محمد زيارة، أئمة اليمن، الطبعة الأولى تعز: مطبعة النصر 1375هـ. ق 1: 54 55 ، مآثر الأبرار 196 وانظر أخبار المرتضى في مآثر الأبرار ص 636.

(4) زيارة، أئمة اليمن 1: 56.

يقول زبارة: (ثم بايده الناس غرة الحرم 299هـ/119م فقام بمدينة "صعدة" وفي يده "بلاد همدان" و "خولان" و "نجران" مدة، وسير جنوده لقتل القرامطة فقتلوا في كل فج واستقامت له الأمور)<sup>(1)</sup>.

وهنا نسأل هل طبقت النظرية الانتخابية؟

قال "يجي بن الحسين بن المؤيد (ت 1090هـ/1680م) نقلًا عن المورخ الكبير "يجي بن الحسين بن القاسم" (ت 1100هـ/1688م) إن "المرتضى" قام بعد والده (بأمر الإمام والرياسة العامة.. بوصية من أبيه)<sup>(2)</sup> ففهم مؤرخون معاصرون مثل "الكبسي" و"المطاع" أنه بoyer بالخلافة بوصية من أبيه<sup>3</sup>.

علينا مناقشة هذه الإدعاء لأنه لو صح لنقض من الأساس شرط الانتخاب وأول ما نلاحظه من وهن على ما ذهب إليه "الكبسي" و"المطاع" أنه يناقض ما ذهب إليه "يجي بن الحسين" مناقضة جوهرية؛ لأن "يجي بن الحسين" لم يقل أنه أوصى بيعته، وإنما أوصاه بالقيام بأمر الإمام، في صيغة يفهم منها دائمًا أن الوصية كانت لفترة مؤقتة وقصيرة يقوم باعمال الإمام حتى يتم انتخاب إمام يرثضونه، كما حدث عندما رشح الخليفة الراشد "عمر بن الخطاب" "صهيباً" ليقوم بالأمر حتى يتمنى الناس؛ فالقول بوصية القيام بالأعمال في هذه الحالة أمر لا ينافي قاعدة الانتخاب، أما القول بالوصية كإمام فهذا ينافي عقيدة "المادي" نفسه والمذهب المادوي نفسه، إذ أن الوصية تنقض المبدأ من الأساس الذي سار عليه "أئمة الزيدية" حتى إلى عصر متاخر، ولو كانت هناك وصية لما خالفها "المرتضى" وهو لم يقبل بالبيعة عند مؤرخين معاصرین له. ولو كان "المادي" يعرف أن ابنه سيرفضها لما أوصى بها له، وليس من شك أنه - لو صحت الوصية - لكان للمرتضى علم بها، ولأقنع أبوه بغيره إن كان من الزاهدين فيها، أو يتخذها حجة له إن كان من الطامعين فيها، ثم إن تاريخ "المرتضى" كله يدل على عزوفه عن الأمر وانصرافه إلى التوجيه والإرشاد، ثم أن "المرتضى"

(1) زيارة، أئمة اليمن: 56.

(2) يجي بن الحسين بن المؤيد، غایة الأمانی في أخبار القطر الیمنی، تحقیق وتقدیم د. سعید عبد الفتاح عاشور، القاهره: دار الكتاب العربي 1388هـ/1968م، بدون رقم الطبعة: 1: 201 وتابعه من المعاصرین عبد الراسع الراسعی، تاريخ الیمن، الدار الیمنی، الطبعة الثالثة 1402هـ/1982م، ص 179.

(3) محمد بن إسماعيل الكبسي، اللطائف السنیة في أخبار المالک الیمنی، طبعة دار السعاده، الطبعة الأولى ص 15، وغاية الأمانی: 204، أحمد بن أحمد المطاع، تاريخ الیمن الإسلامي ن 1006-204 تحقیق عبد الله بن محمد الحبشي بيروت: دار التسیر الطبعة الأولى 1407هـ/1986، ص 146.

في خطابه الأول لم يشر قط إلى وصية، والمقطفات التي أتينا على ذكرها سابقاً تؤكد خلو كلامه من ذكر وصية، ولو كانت صحيحة لكانوا هم قد طالبوه بتحقيقها طاعة لأبيه، أو أنه ذكرها ثم تخلص منها، ولكن لم يحدث شيء من ذلك، وإنما كان خطابه السياسي موجهاً مباشرة إلى الذين جاءوا إليه، وأرادوا منه قبول بيعتهم برضي منهم، لا بحكم وصية ولا بغيرها، وإنما اقتناعاً به. وكذلك لم يشر قط إلى وصاية في خطاب تناحه عن الأمر، وإنما ذكر فيه مانصه: (إنكم معاشر المسلمين أقبلتم إلى عند وفاة "المادي" رضي الله عنه وأردتوني على قبول بيعتكم) ويقول (فأجرت أموركم على ما كان "المادي" يجريها، ولم أطلب بشيء من غرض دنياكم، ولم أتناول قليلاً أو كثيراً من أموالكم) فإذا أضفنا إلى ذلك رواية قوله تؤكد أنه لم يبايع أصلاً بالخلافة العامة فإن رواية الوصية تسقط نمائياً.

ثم نتوقف فنسأل هل بوعي "المرتضى" أميراً للمؤمنين أو أميراً محتسباً حتى يتأتى للناس من يتولى المسؤولية؟.

بعض المؤرخين يذهبون إلى أنه بوعي إماماً، وإلى هذا ذهب مؤلف الملحق بسيرة المادي، وهو الملحق الذي لم نعرف تاريخ كتابته، فقال: (بائع الناس لابنه أبي القاسم محمد بن يحيى صلوات الله عليه يوم الخميس مستهل الحرم سنة تسع وتسعين ومائتين [299هـ/911م] وأقام ب crusade وفي يده بلاد همدان وخولان ونجران)<sup>(1)</sup>. وفي "سيرة الأمراء" أن الشريف "الفاضل" أجاب عن جوازأخذ الجبابيات من غير الأعشاش المشروعة مستشهاداً بما وافق الأئمة الكبار وقال: (وقد كان من احتساب الناصر عليه السلام وما أمره به المرتضى في أيامه وهو الإمام ما علم به الخاص والع العام)<sup>(2)</sup> فعند هذه أن "المرتضى" كان هو الإمام، وأن "الناصر" كان المحتسب.

(1) علي بن محمد بن عبيدة الله العباسى العلوي، سيرة المادي إلى الحق بحى بن الحسين عليه السلام، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، لبنان - بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: الطبعة الثانية: 1401هـ/1981م. ص 397.

(2) مفرج بن أحمد الربعي، سيرة الأمراء الجليلين الشريفين الفاضلين - نص تاريخي يعنى من القرن الخامس الهجري، تحقيق دراسة: رضوان السيد عبد الغنى محمود عبد العاطى، بيروت: دار المتنبى العربى، الطبعة الأولى 1413هـ/1993م، ص 84.

ومنهم من لم يذكر البيعة كإمام الناطق بالحق، وإنما قال (وانتصب للأمر ولم يتحقق به كل التحقيق)<sup>(1)</sup>.

ومنهم من قال بعدم مبايعته خليفة أصلًا، وقد ذهب إلى هذا القول العالمة "مسلم اللحجي" (ت بعد عام 545 هـ/1150 م) معتمدًا على "عبد الله بن عمر المهداني" (ت أوائل ق 13/4 م) و "أبو العباس الحسني" (ت 353هـ/964 م) والسيد "أبو طالب" (ت 424هـ/1032 م) -وهم أقرب عهداً من غيرهم- وبعض رسائل "المرتضى" نفسها. قال العالمة المؤرخ الثبت "مسلم اللحجي" -على ما يروي "ابن الوزير" في "الإبريز" إن "المرتضى" (لم يتقلد الخلافة بعد موت أبيه عليه السلام، وقد ذكر ذلك "أبو العباس الحسني" والسيد "أبو طالب" في كتبهما والشيخ عبد الله بن عمر" في "سيرة الناصر" وذكر ذلك عن "محمد بن يحيى" عليهما السلام في بعض رسائله وكتبه، وأن الناس طالبوه باليبيعة له بعد موت "المادي" إلى الحق عليه السلام واشتد إلحاحهم عليه فدافعهم برفق وتألق بهم قドوم أخيه الناصر عليه السلام من الحجاز حتى قدم<sup>(2)</sup>.

فهذه إذن رواية عن معاصرين ومشاركين أو قريين من الأحداث ومن موقع القرار، ولا ينبعك مثل خبير، وقد أنبئونا بمثل هذه الحقائق، مما يعني بوضوح أن المشاوراة والانتخاب لإمام أو لخاتم قد ثمت بنجاح، وهو الأمر الذي أثبتت فيه "المادوية" أنها وجدت لتبقى، وظهرت لستمر، بالرغم مما سيتعريها من مواقف متخاذلة، ومهما كان الأمر فخلف محدث تكمن آلية سياسية رائعة لا يمكن التغافل عنها، وهي أن انتقال السلطة السياسية قد تم بطريقة سلمية وغير حوار وشوري مباشر، وليس بواسطة مثلين أقوياء فحسب، وإنما من خلال اللقاءات الشعبية كما تسمى هذه الأيام.

وعلى هذا الأساس نفهم أن البيعة التي ذكرها المؤرخون هي في رأي بيعة احتساب، وأن "المرتضى" قبل أن يتولى قيادكم في هذه الفترة لسبب واحد هو مكافحة "القراططة"؛ فإذا فرغ منهم، أو فرغوا منه كان قد دبر أمرًا في نفسه لم يكشف به أحدًا.

\*

(1) يحيى بن الحسين الباروني، الإفادة في تاريخ الأئمة السادة، تحقيق محمد يحيى سالم عزان، صنعاء: دار الحكممة اليمنانية، الطبعة الأولى 1417هـ/1996م، ص 170

(2) أحمد بن عبد الله الوزير: الإبريز في النسب العزيز ص 7. مخطوط

بين وفاة المادي في 20 من ذي الحجة 298هـ/18 أغسطس 911م وبين قدم الناصر "أحمد بن المادي": في 301هـ/913م<sup>(1)</sup> ثلاثة أعوام متقلات بالأحداث الجسم؛ ففي 10 محرم 299هـ/7 سبتمبر 911م - بعد وفاة المادي بعام - سقطت "صنعاء" بيد "علي بن الفضل"، فخرج منها "أسعد بن أبي يعفر" خائفاً تلقاء "شمام"، ثم سقطت "شمام" و"ذخار" وبدأ الطرق يلتقي حول عنق "صعدة"، لكن دخول "علي بن الفضل" مع صاحبه بالأمس "منصور اليمن" في معارك حربية ضد بعضهما البعض أعطى "صعدة" فرصة عظيمة للنجاة من الخطر الداهم،<sup>(2)</sup> ومكنت "المرتضى" من أن يدحر "القراطمة" من معظم أعلى الشمال، ويؤمن حدوده الجنوبية، محققاً بذلك ما قبل بسببه تحمل المسؤولية.

وفي شهر ذي القعدة عام 299هـ/يونيو 912م<sup>(3)</sup> أي بعد أحد عشر شهراً من توليه القيام بأمر الإمامة أو الاحتساب بدأ "المرتضى" مطمئناً على استقرار الوضع في منطقة "صعدة"، لكنه لم يكن راضياً عن قضاياها الداخلية، عندئذ أبدى ما كان يخفيه طيلة الفترة الماضية، بعد أن زادته تجربة الحكم، ومطامع الناس، وعصيائهم، واتباعهم الهوى تصميماً على تنفيذ ما أحفاده، ففاجأ الناس باستقالته في خطاب طويل أوضح لهم فيه أسبابها: (إنكم معاشر المسلمين أقبلتم إلى عند وفاة المادي رضي الله عنه وأردقوني على قول بيعتكم، فامتنعت بما سألتموني، ودافعت ولم أويشك من إجابتكم إلى ما طلبتم خوفاً من استيلاء القرمطي.. على بلادكم وتعرضه للضعفاء والأيتام والأرامل منكم، فأجريت أموركم على ما كان المادي يجريها، ولم أتبليس بشيء من غرض دنياكم ولم أتناول قليلاً أو كثيراً من أموالكم. فلما أخزى الله القرمطي وكفى الله المؤمنين القتال.. تدبّرت أمري وأمركم).<sup>(4)</sup>

ثم شرح - بصدق - ما وجده عندهم وأخذ يعددها واحدة واحدة: (ووجدت أموركم على غير سنها، وأفتيكم قيلون إلى الباطل، وتنفرون عن الحق وتستخفون بأهل الصلاح.. لا تتناهون

(1) ابن المؤيد، *غاية الأمان* 1: 206.

(2) اقرأ عن ذلك المطاع، *التاريخ الإسلامي* 147. وقد عاد علي بن الفضل فدخل صنعاء يوم الخميس 27 رمضان 399هـ، (*غاية الأمان* 1: 202) وانظر الصليحون والحركة الفاطمية في اليمن، وفي الخدائق الوردية أن علي بن الفضل دخل صنعاء في أيام المادي وأن المادي بيت قواه في معركة انتصر فيها، ولم تعط الخدائق اسم المعركة ولا تأريخها. (الخدائق الوردية، ج 2 ص 48).

(3) حدد هذا الشهر والعام يحيى بن الحسين في *غاية الأمان* 1: 202، وتابعه الكبيسي في *اللطفاف* 15، والمطاع 146.

(4) زيارة أئمة اليمن، ق 1، ص 56

عن منكر تفعلونه.. ولا تعظون بوعظ الوعاظين.. بل تجرون في غيكم وعن أمر الله إلى فحيم عادلين، وعما نأمركم به من طاعة الله مزورين.. والى أعداء الله وأعداء دينه الجهال الفساق راكيثين... فلما لم أجده أحداً فيكم من يعين الصادق الحق، ويأمر بالمعروف، ويرغب في الجهاد ويختار رضا الله.. أنزلت هذه الدنيا من نفسي أحسن المنازل وآثرت الآخرة.. من غير زهد مني في جهاد الظالمين ومنابذة الفاسقين.. مع علمي بما فرض الله عز وجل على عباده في وقته وأوانه، وأيقنت مع الأحوال التي وصفتها والموانع التي ذكرها أن السلامة عند الله في الزهد في الدنيا والاشغال بعبادة رب العالمين.. وذلك بعد رجوعي إلى كتاب الله تعالى.. فوجدهه يوجب التبري على من هذا الأمر إيجاباً محكماً.. فاتبعت عند ذلك أمر الله ونزلت عند حكمه<sup>(1)</sup>.

ثم أضاف: (فإن تقم الله عز وجل علىي من بعد ذلك حجة ووُجِدَتْ على الحق أعوانا، وفي الدين إخواناً قمت لأمر الله: طالباً لثوابه، حاكماً بكتابه، متقدلاً لأمره، مبعداً لسنة نبيه.. لا أفارقـه.. وإن لم أجـدـ علىـ ذلكـ أـعـواـناـ صـادـقـينـ،ـ وإـخـوانـاـ لـأـمـرـ اللـهـ مـتـبعـينـ،ـ لـمـ أـدـخـلـ بـعـدـ اليـقـينـ فـيـ الشـيـهـةـ،ـ وـلـمـ أـلـبـسـ ماـ لـيـ لـيـ فـيـ حـجـةـ،ـ وـكـنـتـ فـيـ ذـلـكـ كـمـاـ قـالـ اللـهـ تـعـالـيـ:ـ {فـوـلـ عـنـهـمـ فـمـاـ أـنـتـ عـلـمـوـمـ}ـ<sup>(2)</sup>ـ).

طوى "المرتضى" سيفه، في 912هـ/299م وشرع قلمه فواصل به جهاده، وعندما توفي رحمه الله كان قد خلف وراءه 32 كتاباً<sup>(3)</sup> ورسالة آثرت الفقه والفكر المأدوية الزيدية بروافد خصبة قوت تياره.

\*

وقد حدد الإمام الناطق بالحق "أبو طالب" مدة انتصاره للأمر بقوله: (كانت مدة انتصاره للأمر نحو ستة أشهر)<sup>(4)</sup> وقال زبارة (اعتنى رضي الله عنه بالأمر، وخلا برمه، وآخر عبادته، وصرف عماله من "بلاد همدان" و"نجران" ولزم منزله بـ "صعدة")<sup>(5)</sup>. وغضي الناس طائف

(1) زيارة، أئمة اليمن، ق 1، ص 56-57

(2) زيارة، أئمة اليمن، ق 1، ص 5-857.

(3) انظر قائمة كتبه في: عبد السلام الوجيه، أعمال المؤلفين الزيدية، عمان: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، الطبعة الأولى 1420هـ/1999م، ص 1013-1015.

(4) المأرب، الإفادة، ص 170.

(5) زيارة، أئمة اليمن، ق 1، ص 58.

الحيرة فإذا بكم يدوكون، وينهبون إليه يحاولون إرجاعه عما عزم عليه فلم يقبل، لقد حسم الموقف، وترك الحكم و(أقام بصعدة للصلح بين الناس وبعض بنى عمه)<sup>(1)</sup>.

وخلت "صعدة" من معظم قادها وكثير من علمائها: (سار الطبريون إلى بلادهم وأقام بعض بنى عمه للنظر بين الناس)<sup>(2)</sup>.

ومن شهر ذي القعدة 299هـ / يونيو-يوليو 912م إلى شهر محرم 301هـ / أغسطس 913م سitan وشهران إداقت "صعدة" مرة ثانية دوكاً شديداً بدون رئيس يضبط أمورها، ويعطينا العلامة الجليل "عبد الله بن عمر الحمداني" المتوفى في (ق4) صاحب سيرة الناصر للدين الله - وهو معاصر للأئمة الثلاثة - صورة نابضة لتلك الأجواء التي عاشت فيها "صعدة" بدون إمام، يقول "عبد الله بن عمر": (كان القرمطي.. ابن فضل قد نهى.. والأمور باليمن مهملة، قد زال الأمر بالمعروف والهوى عن المكر، ورفع أهل الفسق رؤوسهم، وأظهروا قبائحهم، وطمعوا في دمار الحق وأهله لوت الهادي إلى الحق عليه السلام وقعود ابنه "محمد بن يحيى" عليهما السلام في منزله حتى خضع أهل العدل والتوحيد وتصاءل أهل الإيمان وضاقت الأرض بال المسلمين)<sup>(3)</sup>.

وأضاف: (و كنت أتصل بالإمام [المرتضى] وأتكلم بما أحب بين يديه فاشرح له أخبار الناس وأحوالهم وما قد تداخلهم، وما قد ظهر من الشرور، فيقول لي: "أبشر أظللك الذي تطلب، ودننا منك ما فيه تراغب ! فكنت أرى أنه يريد بذلك قيامه).

وابن تابع: (ثم كثر عرض الناس أنفسهم عليه، وهو في ذلك يعيد لهم القول الأول ويدافعهم عن نفسه. قال: فسألت "عبد الله بن محمد السعدي" رحمه الله - وكان من أفضل أنصار الهادي.. وأخيارهم وأهل البصائر منهم، وذوى السابقة في الهجرة إليه، وكانت له المترة الرفيعة عند الإمام المرتضى - عن قول الإمام رضى الله عنه ما الذي يريد بذلك للإسلام من نفع؟ فقال لي نعم. أبو الحسن أحمد بن الهادي إلى الحق قادم، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن

(1) مسلم اللحجي، سيرة الإمام أحمد بن يحيى الناصر للدين الله، إكسيلر: الطبعة الأولى 1990، ص 7.

(2) ابن المؤيد، غاية الأمان 1: 202.

(3) اللحجي، سيرة الإمام الناصر: ص 7.

المنكر، فسألته عن الإمام رضي الله عنه: هل يقول ذلك فقال لي: نعم، فحمدت الله وانصرفت<sup>(1)</sup>.

ويصف لنا الحالة العامة متابعاً فيقول: (وإن الناس في ذلك لفي اضطراب شديد، وخطب هائل، وقد أشرفوا على خطير عظيم، وهو جسيم؛ لأن قبائل العرب انبعثت بينها الحروب، وثار بعضها على بعض بالشر، وكثراً بينها القتل والقتال، وقطعت السبل، وظهر المنكر في جميع البلدان)<sup>(2)</sup>.

كما ييدو أيضاً من النص نفسه أن مكاتبة بين "المرتضى" وأخيه "أحمد" -الذي كان موجوداً بـ "الحجاز" عند وفاة "الهادى"- كانت قائمة، وأن "المرتضى" كان يضغط عليه بالوصول ليتحمل المسؤولية، ويظهر أيضاً أن "الناصر" لم يقبل بما عرض عليه أولاً، وأنه وصل إلى "صعدة" لدراسة الموقف مع أخيه على أساس العودة إلى "الحجاز" لا الإقامة بها، ودللنا على ذلك أنه لم يستصحب عائلته معه، ولو كان ينوي الإقامة لاستصحبها، معه وأنزلها في بيت أخيه أو أخيه، فله بما دار وأهل، كما أن مانعه قبول البيعة تأكيد على عدم رغبته في البقاء هناك.

على كل حال بعد عamins كاملين متقللين بالأحداث الجسام وصل "الناصر" إلى "صعدة". يقول "عبد الله بن عمر الحمداني": (فلما كان شهر المحرم من سنة إحدى وثلاثمائة) [اغسطس 913م] قدم الناصر للدين الله "أحمد بن يحيى" عليه السلام من "الحجاز" فأقبل الناس إليه وسائلوا الإمام "محمد بن الهادى" رضي الله عنه إن كان غير قائم بأمرهم أن يعينهم على الناصر للدين الله في القيام بذلك والبيعة منهم له فلم يعدهم عن ذلك<sup>(3)</sup>.

لكن "الناصر" دافعهم ولم يقبل هو الآخر، واحتلى الأشوان ( أيامهما تلك في خلوة، ولا شك أهلاً ينظران فيها فيما يستقيم به أمر الرعية ويعز الله به الإسلام)<sup>(4)</sup>.

(1) اللحجي، سيرة الإمام ص 7.

(2) اللحجي، سيرة الإمام صص 7-8، وابن الوزير، الإبريز ص 75.

(3) اللحجي، سيرة الإمام ص 8 وفي سيرة الهادى أنه قدم في آخر ذي الحجة ص 400 والفارق قد يكون يوماً واحداً. غاية الأمانى 1: 204 (في شهر محرم) بدون تحديد اليوم

(4) اللحجي، سيرة الإمام، ص 8.

وليس لدينا تفاصيل تلك المداولات على أهميتها التي جرت بين "الناصر" مع أخيه، ولا تلك التي أجرتها مع كبار أهل بيته وكبار أنصار أبيه، إلا التر العسيرة، وهانحن نواجه الآن من "الناصر" ما سبق أن واجهنا مع "المتضى": رفض لتحمل المسؤولية مع بذل النصح والمعونة.

يقول "عبد الله بن عمر": (ثم إن الناصر لدين الله.. استدعي نفراً من أهل بيته وأصحاب أبيه رحهم الله جميعاً فعرفهم بما طلب منه الناس من القيام فيهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الأحكام، وأن ذلك واجب إن وجد عليه أعراناً. وشاورهم في الأمر، فتكلم أهل بيته. ثم تكلم وجوه من حضر من أصحاب أبيه وشيعته وأهل الرأي منهم نحو "محمد بن سعيد" و "إبراهيم بن إسحاق" و أبي جعفر "محمد بن سليمان الكوفي" وهؤلاء مشايخ أصحاب "الهادي إلى الحق" عليه السلام فكلهم أوجب على نفسه الطاعة له، ورضي بقيمه)<sup>(1)</sup>.

بعد هذا الاجتماع الشوروي المصغر الذي حضره كبار قادة المادوية خرج "الناصر" إلى بيت أخيه "المتضى" للتداول. قال "ابن عمر": (فلم يلبث أن جاء رسول من الإمام المتضى ل الدين الله يأمرنا بالمصير إليه فدخلنا إليه فوجدناه قاعداً إلى يمينه فتكلم الإمام "محمد بن الهادي" .. وذكر ما طلب الناس من القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذكر أن ذلك واجب وحضر عليه [و] أمر به)<sup>(2)</sup>.

ولم يتبيّن لنا ماذا حدث في هذا الاجتماع؛ لأن السياق انقطع بسبب تدخل العلامة الثبت "مسلم اللحمي" ليروي قصة أخرى. لكنه استأنف حديث "عبد الله بن عمر" عن أحداث شهر صفر، أما وقائع شهر محرم فأضرب عنها صفحأً وامتنع عنها بوحاءً وهذا يدل على أن ذلك الاجتماع لم يسفر عن أمر حاسم. ولكن في صفر بدأت الأحداث تأخذ بحرى جدياً آخر. قال "عبد الله بن عمر" في السيرة: (ما كان (يوم الأحد في ثمان ليال خلت) من صفر سنه 301 هـ [سبتمبر 913م] اجتمع خولان وهم أنصار الهادي إلى الحق وأهل السابقة والفضل في ذلك وجيئوا به دار هجرته وأعواون الأئمة عليهم السلام أهل الوفاء والصبر في المواطن الشريفة التي يمثلها ذكر أولاد العرب، وبها تبني المكارم ويستحق الشواب وتكرم الأحساب فصاروا إلى الناصر ل الدين الله.. فطالبوها بأن يأخذ بيتهم فبایعهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

(1) اللحمي، سيرة الإمام، ص.8

(2) اللحمي، سيرة الإمام، ص.8-9، وانظر ابن الوزير، الإبريز، صص 75-76.

وإقامة حكم الكتاب والجهاد لمن خالف الحق، والنهوض معه إلى من استدعاهم إليه في طاعة الله تعالى!، فأجابوه إلى ذلك مسارعين.. فبأيعوه عليه. وكانت البيعة بمسجد الهادي عليه السلام الذي فيه قبره، ثم بايده سائر الناس يومئذ، ثم ركب إلى صعدة يوم الجمعة، فاجتمع إليه من خولان وغيرها من أبناء الناس بشر عظيم قيل إنهم كانوا فيما بين صعدة والغيل.<sup>(1)</sup>.

وهكذا بُويع "أحمد بن يحيى" إماماً منتخبًا، ولقب بالناصر، وإذا أطلق لقب "الناصر" بدون اسم فالمراد به هذا الإمام، تقديرًا لما بذله في تأسيس الدولة والمذهب معاً، وبانتخابه بهذه الطريقة تقوت طريقة الانتخاب حتى وإن اعتبرها انتكاسات، فقد حافظت على بقائهما نظرياً وعملياً كلما انتخب إمام شرعى مجتهد.

\*

وقد يكون من الخير أن نستكمل ألوان الصورة بالحديث عن بيعة الإمام "الناصر" نفسها. لقد أشار محقق "سيرة الإمام الناصر لدين الله" البروفيسور "ويلفريد ماديلونغ" إلى الفترة التي تمت فيها بيعة "الناصر" فقال في صيغة غامضة: (بعد وفاة الإمام المرتضى وتبوء الناصر الإمامة [أو تفرد؟] رسميًا في محرم 310 هـ / مايو 922 م سعى الإسماعيليون للسلم، وكتبوا لبعض مشايخ همدان، وتم الاتفاق على هذه رسمية في شعبان 310 هـ / ديسمبر 922 م). وتشكل في بيته أيضًا أيام أخيه محققاً سيرة الأمراء فقالا: إن المرتضى (اعتزل الأمر عمليًّا دون أن يتنازل عنه صراحة وتولى أخوه الناصر النهوض بأعباء الدعوة والدولة مع بقاء الأمور على شيء من الغموض حتى وفاة المرتضى عام 310هـ-[922م] إذ لم ينقض إمامته أخيه المرتضى ولم يصرح بدعاوة جديدة غير دعوته)<sup>(2)</sup> (ويضيفاً أن "مفرح بن أحمد" صاحب "سيرة الأمراء" نقل رسالة طويلة "للمرتضى" كتبها للريان الهمداني في تسوييف سلوكه في الاعتزال لكنه لا يصرح بتترك الإمامة<sup>(3)</sup>). ومن خلال مطالعتي لها ملت إلى القول بأن الرسالة كتبت عقب وفاة الهادي؛ لأنها يتحدث فيها عن المصيبة التي نزلت بعد وفاته في أسلوب لا يظهر معه فيه تقادم العهد (أجزل الله ثوابك في دعائك وشكراً سعيك .. فما كانت المصيبة به صلوات الله عليه بخاصة، بل كانت

(1) اللحمي، سيرة الإمام، ص 11. وما بين الملالين من سيرة الهادي ص 400. وانظر الإبريز ورقة 76.

(2) الربعي، سيرة الأمراء ص 33.

(3) الربعي، سيرة الأمراء، ص 33 ح 1. وانظر الرسالة في نفس المصدر ص 294 وما بعدها.

عامة لجميع الأمة، ونقول -على فادح النازلة وعظيم الرزية- إنا لله.. خطب ونازلة جلت<sup>(1)</sup>. وهو يتحدث فيها عن القرمطي وكأنه يعني به علي بن الفضل؛ لأنَّه يذكر أنه ادعى النبوة(كان آخر أمره أن ادعى النبوة وجحد الله سبحانه)<sup>(2)</sup>. ولا يذكر قط شيئاً عن وفاته بل إنه يتخرُّف منه وما يخبيه في المستقبل(أقسم بالله إن ظهروا وبلغوا شيئاً مما أملوا- وأرجو ألا يبلغهم الله ذلك- ليذعن كبارهم الريبيون)<sup>(3)</sup>. ومن ثم فما اعتمد عليه المحققان بمحاجة إلى بحث أعمق، وعلى بن الفضل توفي 15 ربيع الآخر 303هـ/ 28 أكتوبر 915م فهي إذن قبل هذا العام وفي رأيي أن هذه الرسالة قد كتبت قبل وصول الناصر؛ لأنَّه لم يشر إليه ولا بكلمة، ولو كان موجوداً لتحدث عنه ودعا إلى مناصرته ك الخليفة أو نائب عنه وعدم الإشارة إليه تعني أنه كان لا يزال غائباً.

\*

ومهما يكن من أمر فقد توفي "المرتضى" بـ "صعدة" يوم الأحد 7 شهر الحرم 10 مـ/ مايـ 922هـ ودفن بجوار والده "الهادي" ضحى يوم الاثنين<sup>(4)</sup> تاركاً وراءه مدرسة فكرية خصبة و 32 عاماً<sup>(5)</sup> قضتها في الجهاد ونشر الوعي. وله صفحات مشرقة في الجهاد مع أبيه ولم تخُل معركة من معارك الهادي إلا وله فيها حضور قوي. وكان إلى ذلك شاعراً مجيداً وقد أضاف تأثيراً بارزاً على شعر الصمود العقائدي.

قطع وفاة "المرتضى" اللجاج حول بداية بيعة "الناصر" والتقوى المؤرخون الآن حول إمامته وبعد أعوام من وفاة "المرتضى" توفي الناصر في عام مختلف عليه بين عام 315هـ/ 927م<sup>(6)</sup> وعام 320هـ/ 932م<sup>(7)</sup> وعام 322هـ/ 934م<sup>(8)</sup> وعام 325هـ/ 937م<sup>(1)</sup>، ولستا في صدد تحقيق

(1) الريبي، سيرة الأمراء، ص 290.

(2) الريبي، سيرة الأمراء، ص 290.

(3) الريبي، سيرة الأمراء، ص 290.

(4) العلوى، سيرة الهادي، ص 405.

(5) المطاع 159. الشامي تاريخ اليمن الفكري 1: 144. الكبسي: في سنة 322 توفي المرتضى.

(6) الماروني، الإفادة ص 172، الحججي، سيرة الإمام 118-119.

(7) ابن الوزير، الإبريز ورقة 86.

(8) العلوى، سيرة الهادي 406-407. وانظر ابن المؤيد، غایة الأمانى 1: 215. زيارة أئمة اليمن 1: اللحجى سيرة الإمام ص، 10-11، المطاع، تاريخ اليمن الإسلامي، ث 161.

عام وفاته فلذلك حديث آخر ونرجح أنها عام 322/934. والذي يهمنا ذكره هنا هو أن "الناصر" قد ترك وراءه 13 كتاباً ثميناً أثرت الفكر الهادوي بأفانين العلوم<sup>2</sup>.

أثبتت تلك الأحداث بالرغم من تلك الرجات العنيفة التي كادت تعصف بـ "صعدة" حصانة القاعدة الهادوية، والثير في الأمر أن صعدة آنذاك وفي تلك الفترة الخرجية لم تعرّض لغزو من قبل "السلطان" أو "القوى المحلية" من "آل الصحاح" و "آل الدعام" و "آل يعفر" فيحاولون ولو مجرد محاولة أن يضموا "صعدة" إلى ممتلكاتهم، ولكن لم يحدث شيء من ذلك، وكان من المفروض أن يحدث، ولم يدّع المؤرخون بأية حوادث نسخّرها منها الأسباب المانعة، مما يدعونا إلى القول إن "الهادوية" كانت قد تمكنت من تسييج "منطقة صعدة" بسياج قوي حماها من التحلل، وأصبحت بفضل "الهادوية" ثابتة وسط معركة سياسي يتدهور، وهكذا لم يبق من أسباب إلا القول بأن "الهادوية الزيدية" قد أصبحت رقماً لا يمكن تجاوزه.

\*

ما حدث بعد "الناصر" من أهوال وخطوب تعرضت خلالها النظرية الانتخابية بل "الهادوية" نفسها إلى انحطاط ماحقة، قد ينقض ما ذهبنا إليه من ثبات الشروط والمواصفات، ولكن لأن الموج الهائج لا يلبث أن يتراجع إلى شواظنه فدليل على أن الشروط قد تتحمّل أمام العواصف لكن بكل تأكيد فلم تقتلع، فما تلبث أن تعود إلى استواها، فقد ثارت المشاكل بعد "الناصر" واشتعلت ليس بين رؤساء القبائل فحسب، وإنما داخل بيت "الناصر" نفسه. ففي حادث 322هـ/934م إلى 330هـ/941م - وهي الفترة التي اشتعل الخلاف فيها بين الأخوين "الحسن" و "القاسم" ابن "الناصر" - أجمل "ابن المؤيد" أخبارها بشكل واسع نرى من خلالها كيف تَقْبَلَ الأميران "الحسن" و "القاسم" ابن "الناصر" بطابع القبلية والفروسيّة على حساب الشروط والمواصفات الهادوية. "الهادوية" بحق تمكنت من الصمود حتى تجاوزت المحنّة بعد ظروف صعبة، وكان للعلامة الكبير أبو الحسين "أحمد بن موسى الطبراني" (ت بعد 371هـ/981م على مانرجه) دور كبير في الحفاظ على "الهادوية" وتماسكها وسط الزوابع السياسية، ويمكن تصنيفه بالمؤسس الرابع للهادوية بعد

(1) الرجيف، مأثر الأبرار، 2/633، حسين بن أحمد العرشي، بلوغ المرام شرح مسلك الختم في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، تحقيق انتسas الكرملي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ ولا رقم الطبعة، ص 34، الواسعى،

تاريخ اليمن، ص 181، زيارة، أمّة اليمن 1: 64، الحشبي، حكم اليمن .54

(2) انظر مؤلفاته في الوجبة: أعلام المؤلفين الزيدية، صص 202-203

"المادي" و"المرتضى" و"الناصر" وفي ظل حالة منفلترة بكل اطمئنان، وله من المؤلفات مؤلفان في العقائد، وأهم من تأليفه نشاطه الواسع وأسفاره المتعددة إلى المناطق اليمنية وزيارتة للأحياء والأسواق حيث كان يعقد مجالس للحوار مع الآخرين حيالاً كأن وكيفما اتفق، وكان ذا منطق حكيم، مما دخل في نقاش إلا وفاز<sup>(1)</sup>.

وعلى امتداد السنين حافظت النظرية الانتخابية على وجودها بفضل أئمة علماء وعلماء أئمة رغم الانتكسات السياسية، وبعد مضي 448 عاماً من وفاة "الناصر" بحد حسمائة عام يقصدون المهدى "علي بن محمد" إلى "ثلا" ليابعوه إماماً شرعياً، وهو يرفض، وبقي الحوار معه قرابة شهرين<sup>(2)</sup> وكان يرد عليهم: من رضيتموه بايته، ويروى عن العلامة "عبد الله بن الحسن الدواري" - عالمة اليمن في حينه - قوله: (لقد عالجنا المهدى معاجلة أعجزتنا، فما كان جوابه لنا إلا البكاء)<sup>(3)</sup> ولكنهم في النهاية أوجزوا عليه القيام فقبل، ولما أصيب بعرض "الفلاح" نمض كما يقول الإمام "الشوكياني" (العلامة عبد الله بن الحسن الدواري من صعدة في المحرم 773هـ [1371م] فوصل إلى ذمار ومعه جماعة من السادة والعلماء وأجمع رأي القاضي ومن معه أن لا يصلح لإماماً إلا ولده محمد المذكور فلما سمع ذلك تباعد عنه واعتذر فلم يغدوه وألزموه الحجة فقام بالإمامية بعد أن بايده)<sup>(4)</sup>.

وخلاصة الأمر أن الصراع ينبع دائرياً بين الشروط والتغلب ينتصر هذا حيناً وتغلب الشروط حيناً آخر مما أثبت أنها ظهرت لتبقى.

\*

على أن الانتخاب لم يمارس باستمرار، بل ولا في أغلب الأحيان، فقد كان يحدث احتراق لهذه النظرية بين الحين والآخر، ومنذ أن بدأ صراع ابن "الناصر" على الحكم استهل هذا الأسلوب طريقه، وانتج ما يسمى بحكم المغلب. وإذا رحنا نقتبس عن سبب فسنجده - ضمن أسباب

(1) انظر زيد الوزير، أبو الحسين أحمد بن موسى الطيري ودوره في بناء المذهب المادوي، مجلة المسار السنة التاسعة العدد 25 صص 66-142.

(2) محمد محمد زيارة، خلاصة المtron: 221 مخطوط.

(3) المستطاب 2: ورقة 8 مخطوط.

(4) محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع، محسن من بعد القرن السابع، صورة مصورة من الأصل بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ ولا رقم الطبعة ، د، ص486.

أخرى - في المفهوم الخاطئ لشرط الدعوة إلى نفسه، ذلك أن هذا الشرط قد قصد به أصلًا الرد على "الإمامية" القائلة بالستر والغياب، فجاء الإمام "زيد بن علي" يعكس ذلك فلم يجز (أن يكون الإمام مستوراً، بل لا بد أن يخرج داعيا لنفسه)<sup>(1)</sup> ونتيجة للقاعدة الأساسية وهي وجوب الخروج على الظلمة، فقد عَبَر عنها ياشهار السيف، أي بقولهم: شاهراً سيفه - لكن شرط الدعوة هذا قد استخدم - بحيل فقهية، وسطوة قبلية - لغير غرضه، حيث تحول إلى وسيلة ليس فقط للمتغلب بل وللدعاة المجتهدين أيضًا، إذ امتد بعض الدعاة المجتهدين والمستوفين لهذه الشروط حقًا شرعاً في نيل الإمامة، وتحول من ترشيح إلى حق، ولأن لكل مجتهد مستوى الشروط له الحق أن يدعو إلى نفسه، فقد كثر الداعون المجتهدون إلى أنفسهم، وكان لكل واحد منهم علماء تابعون لاجتهاداته، فيدعوا إلى نفسه فيباقونه فيشهر سيفه، ويخرج على إمام سابق مستوى الشروط، ومع أن السابق له الحق الشرعي فإن علماء اللاحق لم يعجزوا عن استنباط التبريرات اللاحمة. وليس من شك أن صراع المجتهدين هذا قد سهل للمتغلبين أيضًا أن يشقوا طريقهم إلى الحكم، وكثيراً ما تلت لهم الغلبة لهذا السبب ولسبب آخر هو الزخم المشيخي القبلي السائد أيضًا.

وليس من شك أن المناخ المشيخي القبلي المتحدر في "اليمن" قد كان له تأثير لا ينكر على الشروط وبالأخص على الانتخاب والدعوة معاً مما سهل للمتغلب أن يمارس دوره بدون شروط المؤهلات المادوية، وبدون انتخاب، ولا مشورة، وإنما كان يتربى على الأمر بالقوة، ومع أن النظرية "المادوية" لا تقر شرعية هذا النوع من الاغتصاب السياسي، وتطلق عليه اسم المتغلب في مقابل المنشتب، ولم يتم قط الاعتراف بشرعية المتغلب، لكنها على كل حال لم تتمكن من منع المتغلب من الحكم، حيث قدمت له الدعوة العامضة فرصاً كثيرة - وخاصة في الفترة المتأخرة - أن يحكم في معظم الفترات كأمر واقع.

مهد وجود المتغلب الطريق للوراثة السياسية أيضًا أن تمارس دورها أيضاً، ولكن بدون أن يجرؤ أحد على تبنيها رسميًا حتى فترة قريبة. ولعل أقسى الضربات التي أُنزلت بالشروط هي عندما أعلنت "ولاية العهد" في الحرم 1343هـ / أغسطس 1924م في الأربعينيات من القرن المجري / العشرينيات من القرن الميلادي، وتم اعتماد "المملكة المتوكلية اليمنية" اسمًا للدولة بدلاً عن "دولة اليمن الإسلامية"، وهذا أبعد الانتخاب وحل محله التعيين، والغيت الإمامة رسمياً - وإن بقيت قائمة في تعامل الإمام بما في الشؤون الشرعية - وحلت الملكية محلها. ولم يرتضى معظم العلماء بهذا

(1) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ج 2، ص 699.

الإجراء فقاوموه، وكان من الأسباب الرئيسة لقيام الثورة الدستورية والإطاحة بالنظام الملكي. على أن سقوط الثورة الدستورية وعودة الملكية قد عجل في سقوط الملكية نهائياً على يد ضباط من الجيش أسقطوا الملكية وأعلنوا الجمهورية عام 1382هـ/1962م.

ولو رحنا نقاش عن السبب الرئيس الذي سمح باختراق الشروط والمواصفات المتباعدة لوجهناه كامناً في عدم تأطُّرِه في مؤسسات حاكمة، أو بتعبير آخر لم تُؤسَسْ –إن صحي هذا التعبير– أي أنها لم تضبط ضمن مؤسسة فعالة، ومضى زمن طويل عليها بدون "مؤسسة" مما ترك الباب مفتوحاً أمام أي مجتهد مكتمل الشروط أن يدعو إلى نفسه، ويتصارع إمامان أو أكثر في وقت واحد، ثم ما هو أدهى وأمر هو ظهور المتغلب، وقد بقي الحال على هذه الوضعية حتى كانت "الثورة الدستورية" عام 1362هـ/1948م فأعادت الأمر ليس إلى نصابه النظري فقط، بل مأسست مبدأ الانتخاب لأول مرة ضمن مؤسسة "مجلس الشوري" المكون من العلماء بدرجة رئيسة، فهو وحده الذي يحق له انتخاب الإمام، وبهذه الطريقة ألغت ما عرف تاريخياً بتعدد الأئمة الكبار، ووضعت حداً نهائياً لقضية التغلب والوراثة، وأثبتت علماء المادوية الزيدية ومعهم قيادات سياسية كبيرة من الزعامات الشافعية أن النظرية المادوية قابلة للتطوير والإبداع. الحق أن "الثورة الدستورية" بقيادة العلماء قد وضعت نظام الإمامة نفسه داخل المؤسسات، وكانت تلك بداية ظافرة للخروج من الانفلاتات المتكررة إلى التطوير والإبداع، بيد أن الانتصار الملكي على "الثورة الدستورية" وعلى علمائها المجتهدين وعلمائها الكبار قد أرجع حكم الغلبة والوراثة إلى الوجود بعد أن كاد يقضي عليه.

ولى جانب هذا السبب ولا يقل أهمية عنه أن حكم الغلبة بدون شروط ومواصفات وحضور الوراثة غير المعلنة، خاصة في القرن الثالث عشر الهجري / القرن التاسع عشر الميلادي، قد ظفر بتأييد بعض علماء المادوية المجتهدين المؤثرين بالفكرة الذي يدعو إلى طاعة أئمة الجور، وهو وإن كانوا قلة إلا أن بعضهم كان له نفوذ كبير، وكان اعترافهم بأئمة الجور حكاماً وأمراء للمؤمنين ذات تأثير كبير أيضاً، وقد يكون الإمام المجتهد الكبير "محمد بن علي الشوكاني" (ت 1250هـ/1834م) واحداً من أسهم في هذا الاتجاه بالرغم من علمه الواسع، إلا أنه قد مال إلى تبني إسقاط شرط الاجتهاد وتحريم الخروج على أئمة الجور، مما سهل للمتغلب أمره فهذا الإمام الطائر الصبيت يسمح بإمامية غير العالم بشرط ألا يتولى القضاء (وليس للإمام إذا لم يكن مجتهداً أن يستبدل بما يتعلق بأمور الدين ولا يدخل نفسه في فصل الخصومات، والحكم بين الناس فيما ينوبهم؛ لأن

ذلك لا يكون إلا من مجتهد كما قدمنا من القضاء. والحاصل أنه لا دليل في المقام يوجب علينا اشتراط اجتهاد الأئمة، حتى يجب المصير إليه، ولا إجماع حتى يكون التعويل عليه، وليس في المقام إلا مجرد المجادلة بمباحث راجعة إلى الرأي البحث، كما يعرف ذلك من يعرفه، وما أهون مثلها على الحفظين من علماء الدين المقيدين بالدليل المحكمين للشرع<sup>(1)</sup>.

وأضاف الإمام "الشوکانی" تحرير الخروج على الإمام الظالم وجاء في كتابه السيل الجرار وهو من أواخر كتبه: (لا يجوز لهم أيضاً الخروج عليه ومحاكمته إلى السيف)<sup>(2)</sup> ويقول: (لا يجوز الخروج على الأئمة وإن بغوا في الظلم أي مبلغ ما أقاموا الصلاة ولم يظهر منهم الكفر الواح)<sup>(3)</sup>. فهو هنا يرجع بقوة رأي الإمام "أحمد بن حنبل"، وأهم من ذلك أن هذين الرأيين يشجعان دعاوى المتغلب ويسهلان له البقاء في الحكم عمارس جوره، إذ لا يجوز الخروج عليه، وزاد الطين بلة أن الإمام "الشوکانی" وزر لثلاثة أئمة ظلمة، هم المنصور "علي" (ت 15 رمضان 1224هـ/24 أكتوبر 1909م)، والموكل "أحمد" (ت 17 شوال 1231هـ/10 سبتمبر 1816م) والمهدي "عبد الله" (ت 1252هـ/1836م) وكان أول مباعي للموكل والمهدي والمولي لقبض البيعة لهم من بقية الناس<sup>(4)</sup> وكان المنصور "علي" قد عينه عام 1209هـ/1794م قاضياً للقضاء، ومنحه رتبة شيخ الإسلام. وكان الإمام "الشوکانی" يستحق هذين المصبين بمقداره، إذ كان عالماً مجتهداً واسع الاطلاع، وعندما تولى القضاء أخرى أمور الشريعة التعاملية على نصائحه، وكان عادلاً في أحکامه الشرعية، مقبول الكلمة، ولكنه لم يتدخل في مظالم الأئمة الجائز، وخاصة على عهد

(1) محمد بن علي الشوکانی، السيل الجرار المتدقق على حدائق الأزهار، بيروت – لبنان، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1425هـ/2004: ص 477.

(2) الشوکانی، السيل الجرار المتدقق، ص 938-939.

(3) الشوکانی، السيل الجرار ص 965.

(4) انظر ترجحه للأئمة المتغلبين الثلاثة وعمله الكبير في حماية الحكم وتاييده كل منهم في كتابه البدر الطالع. محاسن من بعد القرن السابع، صورة مصورة من الأصل بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ ولا رقم الطبعة. وقد سمى المنصور "علي" بأمير المؤمنين (البدر الطالع 1، 459)، وقال عن الموكل أحمد (كنت أول من بايعه ثم كنت المولي لأخذ البيعة له..). ج 1، ص 467 وانظر ج 1، ص 78 وفي ترجمة المهدي عبد الله (وقمت المباعدة منه له بعد طلوع الفجر، ثم أخذت له البيعة من جميع أمراء صناعه..) (ج 1، 377). ونفهم من هذه المواقف أن الإمام الكبير "الشوکانی" كان عملياً ونظرياً يبيح خلافة من ليس مجتهداً، ويبيح بيعة ظالم ويبيح التوظف معه وهو نفسه قد قضى لثلاثة أئمة لم يتوفر فيهم الشروط ولا العدالة.

المهدي "عبد الله" ولعل ذلك ما ضمن له الاستمرار والحماية القوية من قبل هؤلاء الأئمة الثلاثة، وفي مقابل ذلك أغدق عليه الأئمة موفور العطاء<sup>(1)</sup>.

ومهما كان هذا المأخذ في موالة الظلمة، إلى جانب بعض مآخذ أخرى أخذه عليها تلميذه الحافظ المختهد "محمد بن علي العماري" في كتابه "إتحاف النبيه بتاريخ القاسم بن محمد وبنيه" (ت في جمادى الأولى 1264هـ/أبريل 1848م)<sup>(2)</sup> إلا أن ما أجراه من عدل ونزاهة في فصل الخصومات في القضايا التعاملية قد غطت على المظالم السياسية، وبسبب سمعته الكبيرة، وعلمه الواسع ومكانته في قلوب الرعية فقد وظفت كل تلك الميزات لصالح دعم الغلبة والوراثة، وكان دعمه للأئمة الثلاثة الذين لم يستوفوا شروط المذهب المادوي أثراً بليغاً في تسهيل مثال المتغلب وإضعاف قوة الممانع.

[1] ذكر زباره: (أقطعه الإمام صدقات وصابة وجبل اللوز وصدقات الرونة وسعوان وشوكان وشيبان وشيشاً وأسعاً غير هذا، ومن صدقات بيت راجح، وأضاف إليه صدقة بيت قبان وصدقة بيت الحمي ووصية التوهبي وتعمم) (محمد زباره: نيل الوطر 2: 298) وقال صاحب الحوليات إن شيخ الإسلام يأتى بعد الإمام في الإنفاق وقبل وزرائه وسيوف إسلامه وكان وقتها الإمام محمد بن علي الشوكاني (كان شيخ الإسلام مهاباً لتنفيذ الكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآلله وسلم، ولم يشهد عليه أحد بأخذ تقير ولا قطمير من المشاحررين والسبب أن معه قطعاً مثل "رصابة" و"الرونة" وغيرها تدعى [عطي] أقل ما يكون ألف قدر طعام ومثلها عدد أنصب غنم، وعاد معه من الخيمة مصروف في كل شهر نحو مائة قرش حجر فيأكل معه كل من عرفه وجاوره ولم يدخل شيئاً مما حصل) (الحوليات ص 279). ولا أعتقد أن الشوكاني قد خضع لهذه الإغراءات لكنها كانت ولا شك أحد أسباب مواليته، إلى جانب أنها وافقت مبدأه المبني في هذه القضية، وما عداها فهو إمام من أئمة الزيدية.

[2] محمد بن علي العماري، "إتحاف النبيه بتاريخ القاسم بن محمد وبنيه" مخطوط، وقد جمع تلك المأخذ حفيده الحافظ العلامة محمد بن إسماعيل العماري في أوائل نسخته وهي 17 قمة أهتمها أهتمها له بأنه أفتى بقتل العالمة الفيلسوف ابن حرية، وبقتل العالمة الشائر أحمد بن علي السراجي.

**The Election and Invitation in al-Hâdavî Zaydism****ABSTRACT**

This article mentions the thesis that Imâmat occurs by election and invitation in Zaidiyya State in the period of al-Hâdî ilâ al-Haqq and this is a basis in that period. It is stressed in the article that al-Hadi ilâ al-Haqq, the caliph between 284-298/897-911, comes to power by election and he is appointed as Imam in order to accomplish the duty of ordering the right and refraining people from the wrong as well as ruling with 'the Book.' In this respect, it is questioned the validity of either to call for allegiance to him as well as election, or the Imamet of the despot. Also, in addition to the opinions in the classical period, the idea of al-Shawkani who approves the Imamet of the despot and tells that it is not permissible to uprise against cruel rulers as long as they pray and unless they express the blasphemy.

**Key words:** Sect, Shî'a, Zaidiyya, al-Hâdî, election, Imâmat, invitation, al-da'wa.